جديرون بالاحترام

جون قرنق

من أنت أيها المحارب المتمرد الغاضب.

سنجعل كل مدينة ندخلها تزهو وتضيء.

ذلك ما تغنى به هؤلاء في تجمعاتهم ورددوه لعقود طويلة.

هل تخطى تقديرات السياسيين حين تعتبر الخصم عدوًا مطلق، حتى وإن كان مطلبه واضحًا؟

هذا المحارب القادم من أرض الأبنوس رأى أن بلاده تعاني مشكلةً أزلية، تسمى الهوية. فهو نيليّ قادم من مدينة بور وتنحدر جذوره من قبيلة الدينكا، لكنه يحتاج كي يخاطب قومه للحديث بلغة عربية تسمى عربية جوبا، يفهمها أبناء الجنوب بكل قبائلهم، رغم أنهم ليسوا من العرب، فصارت لغة الوصل بين كل تلك القبائل.

أنيانيا ١ حركة مسلحة نشأت في جنوب السودان للمطالبة بحق الجنوبيين في المساواة مع بقية أبناء شعبهم في التنمية والاعتراف بثقافتهم.

تحمس الفتى جون قرنق للقضية وانضم في خريف عام اثنين وستين وتسعمئة وألف إلى صفوف الحركة، لكنها رآته صغيرًا فأرسلته لإكمال دراسته في أمريكا.

استمر قتال أنيانيا ١، ضد الحكومات في السودان وفي عام اثنين وسبعين توصلت الحركة إلى اتفاق سلام دمج بموجبه بعض أبناء الحركة كضباط في الجيش السوداني، وكان قرنق أحد الضباط الجدد بعد عودته بشهادة الدكتوراه في الاقتصاد.

يستمر العقيد في مهامه العسكرية حتى عام ثلاثة وثمانين حين أرسل بفرقة عسكرية للتعامل مع مسلحين أعلنوا التمرد في الجنوب.

لكنه لم يعد إلى صفوف الجيش، بعد أن اقتنع بعدالة قضية المتمردين، وقرر السير في طريق لا عودة منه إلا بتسوية قضية شعبه العادلة، مؤسسًا الحركة الشعبية لتحرير السودان أس بي أل أم، وجيشها الشعبي.

سيكون على هذا المحارب الزنجي وأتباعه الانتظار في ساحات القتال لأربعة عقود حتى يستمع إليه أصحاب القرار وحتى ذلك الحين لم يُسمع صوت في جنوب السودان أكثر دويًا من صوت الغضب والثورة والقتال لأجل الهوية.

يحاول الدكتور قرنق إقناع العالم بعدالة قضيته، رغم علمه بأن الحرب شرٌ لكنه رآها شرًا لا بد منه، فهو يؤمن بوطن واحد يسع الجميع، لا فرقة فيه ولا نزاع.

عَلِقَ الشعب الجنوبي أحلامًا عريضة، على الدكتور قرنق، وتغنوا باسمه وبحياته وهتفوا له.

الحرب في عُرف جون قرنق ليست قتالًا فحسب، لكنها تحمل قيمًا إنسانيةً أيضًا، والمقاتل الجيد هو الذي يحفظ هذه القيم ويلتزم بها.

لا يتعب قرنق من البحث في تاريخ السودان وأصل هويته، لعل ذلك يوجد شيئًا من التقارب بينه وبين خصومه الذين يصفونه بالمتنرد العميل للغرب.

من الصعوبة بمكان أن تُقنع الكثيرين بما تراه فأنت بعيدٌ عن الأضواء، ولا تُذكر إلا مقتدرًا بالحرب والدمار.

الحرب وحدها لا تكفي إذا فلا بد للخصوم أن يجتمعوا تحت قبةٍ ما، فهذا هو المقاتل الثائر يجالس خصومه بحثاً عن إنهاء حربٍ قتلت عشرات الآلاف.

جولات المفاوضات والنقاشات هذه تحاول وضع رؤيةٍ مشتركة بين الخصمين في عواصم أفريقيا، ولحسن الحظ توجت أخيراً في يناير من عام ألفين وخمسة باتفاقيةٍ شاملة تضمنت بنوداً رأى فيها مقاتل بور العنيد تحولاً يمكن أن يحقق مطالب المساواة التي كان يراها غائبة .

توقفت الحرب، ووعد قرنق شعب السودان بسودانٍ جديد، تختفي فيه دوافع الحروب وينمو فيه الولاء للوطن. قضى قرنق جُل حياته بعيداً عن العاصمة السودانية، ليكون يوم وصوله إليها مختلفاً.

الملايين من أبناء الجنوب والشمال احتشدوا في الساحة الخضراء لاستقبال محاربٍ يأبى أن يضع سلاحه حتى تحقيق آخر مطلبٍ له بتحويل حكم البلاد إلى حكم ديموقراطي يحترم تعدد الأعراق والثقافات.

الأهازيج في كل شبرٍ من البلاد، فالحرب انتهت، وعدو الأمس غدى صديقاً، وأحلام الذين شردتهم الحروب باتت أقرب من أي وقتٍ مضى .

روميك مدينةً جنوبية انتظرت طويلاً عودة البطل الفاتح، وها هي تحتفل مع بقية المدن بعودة بابا قرنق كما يناديه الجنوبيون .

لم يُمهّل هؤلاء المحتفلون أكثر من ثلاثة أسابيع لإنهاء احتفالاتهم فثمة أمرٌ جللٌ كان في انتظار الجميع.

يومها انكسرت كل تلك القلوب الحاملة، واستسلمت للبقاء فلم يبقَ من رجلٍ قاتل لأكثر من عقدين ولم يحكم أكثر من عشرين يوماً سوى كلماته التي سمعها الجميع.

بعد عقودٍ من حربٍ طويلة رحل الدكتور قرنق في ظل السلام تاركاً خلفه شعباً حزيناً، وأحلاماً تبعثرت في الرمال.